كتاب الهلال

الأرواح المتمردة - الأجنحة المتكسرة

الموسيقى

٣ كتب في كتاب

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

جبران خليل جبران

سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال

www.alkottob.com

الموسيقى

Amly

http://arabicivilization2.blogspot.com

www.alkottob.com

جلست بقرب من احبتها نفسى اسمع حديثها . اصغيت ولم أنبس ببنت شفة ، فشعرت ان فى صوتها قوة اهتز لها قلبى اهتزازات كهربائية فصلت ذاتى عن ذاتى ، فطارت نفسى سابحة فى فضاء لا حد له ولا مدى ، ترى الكون حلما والجسد سجنا ضيقا .

سحر عجيب مازج صوت حبيبتى وفعل بمشاعرى ما فعل ، وانا لاه عن كلامها بما اغنانى عن الكلام

هى الموسيقى ايها الناس ، سمعتها اذ تنهدت حبيبتى بعيد بعض الكلمات وابتسمت فى بعضها . سمعتها لما حكت تارة بألفاظ متقطعة وآونة بجمل متواصلة واخرى بكلمات ابقت نصفها بين شفتيها

تأثيرات قلب حبيبتى ، رأيتها بعين سمعى فاشغلتنى عن جوهر حديثها بجواهر عواطفها المتجسمة بموسيقى هى صوت النفس

بلى ، فالموسيقى هى لغة النفوس ، والألحان نسيمات لطيفة تهز أوتار العواطف . هى أنامل رقيقة تطرق باب المشاعر وتنبه الذاكرة ، فتنشر هذه ما طوته الليالى من حوادث أثرت فيها بماض عبر

هى نغمات رقيقة تستحضر، على صفحات المخيلة ، ذكرى ساعات الأسى والحزن اذا كانت محزنة ، او ذكرى أوقات الصفاء والأفراح اذا كانت مفرحة

www.alkottob.com

هى مجموع اصـــوات محزنة تسمعها فتستوقفك وتملأ اضلعك لوعة وتمثل لك الشقاء كالأشباح

هى تاليف انغام مفرحة ، تعيها فتأخذ بمجامع قلبـــك فيرقص بين أضلعك فرحا وتيها

هى رنة وتر تدخل سامعتك محمولة بتموجات الأثير ، فقد تخرج من عينيك دمعة محرقة أثارتها لوعة نأى حبيب أوآلام كلوم خرقها ناب الدهر . وربما خرجت من بين شفتيك ابتسامة كانت والحق عنوان السعادة والرخاء

هى جسم من الحشاشة ، له روح من النفس وعقل من القلب

وجد الانسان فأوحيت اليه الموسيقى من العلاء لغة ، ليست كاللغات ، تحكى ما يكنه القلب للقلب ، فهى حديث القلوب . وهى كالحب عم تأثيرها الناس ، فترنم بها البرابرة فى الصحراء ، وهزت أعطاف الملوك فى الصروح . مزجتها الثكلى مع نوحها ، فكانت ندبا يفتت قلب الجماد . وبثها الجذلان مع أفراحه ، فكانت انشادا يطرب مغلوب الأرزاء ، فقد حاكت الشمس ، اذ أحيت بأشعتها جميع زهور الحقل

الموسيقى كالمصباح ، تطرد ظلمة النفس ، وتنير القلب ، فتظهر أعماقه . والألحان فى قضائى اشباح الذات الحقيقية او خيالات المشاعر الحية . والنفس كالمرآة المنتصبة تجاه حوادث الوجود وفواعله تنعكس عليها رسوم تلك الأشباح وصور تلك الخيالات

النفس زهرة لينة فى مهب ريح المقادير ، نسيمات الصباح تهزها وقطرات الندى تلوى عنقها . كذا تغريدة عصفور تنبه الانسان من غفلته ، فيصغى ، ويشعر ، ويمجد معه الحكمة مبدعة نغمة الطائر العذبة وشعوره الرقيق ، وتهيج تلك التغريدة قوى فكرته ، فيسأل ذاته ، وما يحف به ،

www.alkottob.com

عما أسره لحن ذلك الطائر الحقير فحرك أوتار عواطفه وأوحى اليه معانى ما حوتها كتب الأولى تقدموه . يسأل مستفهما عما اذا كان العصفور يناجى زهور الحقل أم يحاكى أغصان الأشجار أم يقلد خرير مجارى المياه أم ينادم الطبيعة بأسرها ، ولكنه لايستطيع الى الحصول على الجواب سبيلا

الانسان لايدرى مايقوله العصفور فوق اطراف الأغصان ، ولا الجداول على الحصباء ، ولا الأمواج اذ تأتى الشاطىء ببطء وهدوء . ولا يفقه ما يحكيه المطر اذ يتساقط منهملا على أوراق الأشجار ، أو عندما يطرق بأنامله اللطيفة بلور نافذته ، ولا يفهم ما يقوله النسيم لزهور الحقل ، ولكنه يشعر أن قلبه يفقه ويفهم مفاد جميع هذه الأصوات فيهتز لها تارة بعوامل الطرب ، ويتنهدطورا تنهدات الأسى والكآبة. أصوات تناجيه بلغة خفية ، وضعتها الحكمة قبل كيانه ، فتحدثت نفسه والطبيعة مرات كثيرة وهو واقف معقود اللسان حائرا ، وربما ناب عن لفظه الدمع والدمع أفصح مترجم

تعال معى يا صاح ، الى مسرح الذكرى لنرى منزلة الموسيقى عند أمم طوتها الأيام ، وتعال نتامل تأثيرها فى كل دور من أدوار ابن آدم

عبدها الكلدانيون والمصريون كاله عظيم يسجد له ويمجد. واعتقد الفرس والهنود بكونها روح الله بين البشر . وقال شاعر فارسى ما معناه : « ان الموسيقى كانت حورية فى سماء الآلهة فعشقت آدميا وهبطت نحوه من العلو ، فغضب الآلهة اذ علموا وبعثوا وراءها ريحا شديدة نثرتها فى الجو وبعثرتها فى زوايا الدنيا ، ولم تمت نفسها قط بل هى حية تقطن آذان البشر »

www.alkottob.com

وقال حكيم هنـــدى : « ان عذوبة الألحان توطد آمالى بوجود أبدية جميلة »

والموسيقى عند اليونان والرومان كانت الها مقتدرا ، بنوا له هياكل عظيمة مابرحت تحدثنا بعظمتهم، ومذابح فخيمة ، قدموا عليها أجمل قرابينهم وأعطر بخورهم . الها دعوه « أبولون » فمثلوه وجميع الكمالات تجعله منتصبا ، كالغصن على مجارى المياه ، يحمل القيثارة فى يسراه ، ويمينه على الأوتار ، راسه مرفوع يمثل العظمة ، وعيناه ناظرتان الى البعيد كأنه يرى أعماق الأشياء

وقالوا ان رنات أوتار ابولون صدى صوت الطبيعة . رنات شجية ينقلها عن تغريد الطيور وخرير المياه وتنهدات النسيم وحفيف أغصان الأشجار

وجاء فى أساطيرهم أن رنات أوتار «اورفيوس» الموسيقى حركت قلب الحيوان فاتبعته الضوارى ، والنبات ، فمدت نحوه الأزاهر اعناقها ومالت اليه الأغصـــان ، والجماد ، فتحرك وتفتت

وقالوا فقد أورفيوس زوجته فبكاها ورثاها نادبا حتى ملأت نغمة لوعته البرية ، فبكت الطبيعة لبكائه حتى حنت قلوب الآلهة ففتحت له أبواب الأبدية كى يلتقى بحبيبته فى عالم الأرواح

وقالوا قتلت بنـات الأحراج أورفيوس ورمين برأسه وقيثارته الى البحر ، فطافا على الماء حتى بلغا جزيرة دعاها اليونان « جزيرة الأغانى »

وقالوا ان الأمواج التى حملت راس أورفيوس وقيثارته ما برحت مذ ذاك الحين تصـــوغ من أصواتها ندبا مؤثرا وانغاما محزنة ، تملأ الأثير فيسمعها الملاحون

www.alkottob.com

هذا كلام ــ بعد أن قضى عز تلك الأمة ومضى ــ دعوناه خرافات مصدرها الوهم وأحلاما ابتدعتها التصورات ، غير انه قول دل على أن تأثير الموسيقى فى صدور اليونان كان عميقا وعظيما فقالوا ما قالوا عن صحة اعتقاد ، فما ضرنا لو دعونا تلك الأقوال مبالغة شعرية مصدرها رقة العواطف ومحبة الجمال ، وهذا فى عرف الشعراء الشعر ؟

نقلت الينا آثار الآشوريين رسوما تمثل مواكب الملوك سائرة وآلات الطرب تتقدمها ، وحدثنا مؤرخوهم عن الموسيقى فقالوا انها عنوان المجد فى الحفلات ورمز السعادة فى الأعياد . أجل . فالسعادة بدونها تحكى فتاة قطع لسانها . فالموسيقى لسان جميع أمم الأرض ، سبحت معبوداتها بالأناشيد ومجدتها بالألحان ، وكانت التراتيل ــ وهى الآن ــ فرضا كالصلاة يقدمونها فى المعابد ، وكمحرقات يقفونها على القوة المعبودة . محرقات مقدسة مبداها عواطف النفس . صلوات يهذبها القلب وما أكملته اهتزازات المشاعر . أنفاس حرة ما زلفتها الألفاظ بل تظرفت بها أنفاس اثارتها ندامة الملك داود فملأت أناشيده أرض فلسطين ، وابتدعت أشجانه أنغاما شجية مؤثرة منبعها انفعالات التوبة وحزن النفس ، وكوسيط قامت مزاميره ، بينه وبين الله ، تطلب له مغفرة زلاته ، وكأن رنات قيثارته قد انبثقت من قلبه المنسحق ، وسرت مع قطرات دمه الى أصابعه ، فكانت أعمال تلك الأصابع عظيمة عند الله والناس . وهو القائل : « هللوا للرب ، سبحوا الرب بصوت البوق ، سبحوه بالمزامير والقيثارة ، سبحوه بالطبل والدفوف ، سبحوه بالأوتار والأرغن ، سبحوه بصوت الصنوج ، سبحوه بصنوج التهليل وكل نسمة فلتسبح الرب » . وجاء فى الأسفار أن ملائكة من السماء تأتى ، فى آخر الدهر ، نافخة الأبواق فى جميع أقطار العالم فتستفيق من صوتها الأرواح وتلبس أجسامها

www.alkottob.com

وتنشر امام الديان . لقد عظم كاتب هذا السفر الموسيقى اذ انزلها منزلة رسول من الله الى ارواح البشر ، وما قول الكاتب الا صورة مشاعره ، وعلى نوع كلام ينطبق على اعتقادات معاصريه

وجاء ، فى بدء مأساة ابن البشر ، ان التلامذة سبحوا قبيل ذهابهم الى بستان الزيتون حيث قبض على معلمهم ، وكأنى الآن اسمع نغم تلك التسبيحة صادرا من اعماق نفوس حزينة رأت ما سيحل برسول السلام فتنفست عن نغمة مؤثرة نابت عن كلمة الوداع

تسير الموسيقى ، أمام العساكر ، الى الحرب فتجدد عزيمة حميتهم وتقويهم على الكفاح ، وكالجاذبية تجمع شتاتهم وتؤلف منهم صفوفا لاتتفرق . ما سارت الشعراء ، امام الكتائب ، الى ساحات القتال ، موطن المنية ، لا ولا الخطباء ، ما رافقتهم الأقلام والكتب ، بل مشت امامهم الموسيقى كقائد عظيم ، يبث فى اجسامهم الواهنة ، قوة تفوق الوصف ، وحمية تنبه فى قلوبهم حب الانتصار فيغالبون الجوع والعطش وتعب المسير ، ويدافعون بكل ما فى اجسادهم من القوة ، ووراءها يسيرون بفرح وطرب ويتبعون الموت الى ارض العدو المبغوضة . كذا يستخدم ابن آدم اقدس ما فى الكون لتعميم شرور الكون

الموسيقى رفيقة الراعى فى وحدته ، وهو ان جلس على صخرة فى وسط قطيعه نفخ بشبابته الحانا تعرفها نعاجه فترعى الأعشاب آمنة . والشبابة عند الراعى كصديق عزيز لا تفارق وسطه ، ونديم محبوب ، تستبدل سكينة الأودية الرهيبة برياض مأهولة ، وتقتل بأنغامها الشجية وحشتها ، وتملأ الهواء انسا وحلاوة

الموسيقى تقود اظعان المسافرين وتخفف تأثير التعب وتقصر مديد الطرقات . فالعيس لا تسير فى البيداء الا اذا

www.alkottob.com

سمعت صوت الحادى . والقافلة لا تقوم بثقيل الأحمال الا اذا كانت الأجراس معلقة برقابها . ولا بدع ، فالعقلاء فى ايامنا هذه يربون الضوارى بالألحان ويدجنونها بأصوات عذبة

الموسيقى ترافق ارواحنا وتجتاز معنا مراحل الحياة ، تشاطرنا الأرزاء والأفراح وتساهمنا السراء والضراء . وتقوم كالشاهد فى ايام مسرتنا وكقريب شفوق فى ايام شقائنا

يأتى المولود من عالم الغيب الى دنيانا ، فتقابله القابلة والأقارب بأغانى الفرح ، متأهلين بأناشيد الابتهاج والحبور. يحييهم ، عندما يرى النور ، بالبكاء والعويل فيجيبونه بالتهليل والهتاف كأنهم يسابقون بالموسيقى الزمان على افهامه الحكمة الالهية

واذا ما بكى الرضيع اقتربت منه والدته وغنت بصوتها الموسيقى المملوء رقة وحنوا ، فيكف عن البكاء ويرتاح لألحان امه المتجسمة من الشفقة وينام . وفى الحان الوالدة ونغمتها قوة توعز الى الكرى ليغمض أجفان طفلها . وتشارك تلك الألحان السكينة بهدوئها فتزيدها حلاوة ، وتمحو رهبتها وتملأها سحرا من أنفاس الأم الحنون حتى يتغلب الرضيع على الأرق وينام وتطير نفسه الى عالم الأرواح . ولا ينام الطفل لو تكلمت الوالدة بلسان شيشرون أو قرات ابن الفارض ..

ينتقى الرجل شريكة حياته وتتحد نفساهما برباط الزواج ، متممين وصية كتبتها الحكمة منذ البدء على قلبيهما ، فيجتمع الأقارب والخلان ويفرحون بالأناشيد والأهازيج ، ويقيمون الموسيقى شاهدا عندما يربط القران عرس المحبة ، فكانى بها ، يوم العرس، صوت رهيب تمازجه

www.alkottob.com

الحلاوة ، صوت يمجد الله فى مخلوقاته ، صوت ينبه الحياة النائمة لتسير وتنتشر وتملأ وجه الأرض

وعندما يأتى الموت ، ويمثل آخر مشهد من رواية الحياة ، نسمع الموسيقى المحزنة ونراها تملأ الجو بأشباح الأسى ، فى تلك الساعة الموجعة اذ تودع النفس ساحل هذا العالم الجميل وتسبح فى بحر الأبدية ، تاركة هيكلها الهيولى بين أيدى الملحنين والنادبين ، فيتأوهون بنغمات الحزن والأسف ويلحفون تلك المادة الثرى ويشيعونها بألحان مفادها الضيم وأناشيد معناها الكمد واللوعة . نغمات يحيونها ما بقى التراب فوق التراب ، وان بليت يبق صداها فى خلايا الجوارح ما دام القلب يذكر من مضى

جالست من ميزه الله بعذوبة الصوت وحباه ادراك فلسفة التنغيم والايقاع فرايت السامعين حوله مصغين ، صاغرين ، ماسكين أنفاسهم ، محكومين بفواعل السكينة ، شاخصين اليه كالشعراء المستسلمين لقوة فعالة ، توحى اليهم أسرارا غريبة ، حتى اذا ما انتهى الملحن من انشاده تنهدوا ذاك التنهد الطويل : آه !.. آه !.. صادرة من أفئدة هيجت فيها الألحان عواطف مكنونة فلذ لها التأوه . آه ، تتنفسها قلوب حرى أنعشتها الذكرى . آه ، كلمة صغيرة لكنها حديث طويل . آه ! ما قالها سامع كلام الملحن لا ولا ناظر وجهه ، بل تنهدها من أعار أذنا لنشيد نسج من مقاطع أنفاس متقطعة . أنفاس حية مثلت له فصلا من رواية حياته الماضية أو فشت سرا أكنته أضلعه

وكم تأملت وجه سامع حساس فرايت ملامحه تنقبض تارة وتنبسط طورا وتنقلب مع تقلبات النغم . واهتديت بخلقه الى خلقه واستحكيت باطنه بواسطة ظاهره

والموسيقى كالشعر والتصوير ، تمثل حالات الانسان المختلفة وترسم أشباح أطوار القلب وتوضح خيالات ميول

www.alkottob.com

النفس وتصوغ ما يجول فى الخاطر وتصف اجمل مشتهيات الجسد

« النهاوند » يمثل تفريق المحبين ووداع الوطن ويصف آخر نظرة من راحل عزيز . يمثل شكوى آلام مبرحة بين ضلوع قوامها لظى الشوق . النهاوند صوت من اعماق النفس الحزينة . نغم متجسم من مهجور يسأل عطفا على رمقه قبل أن يضنيه البعاد . زفرات يائس انشأتها المرارة وتنهدات قانط بثتها لوعة من اتلفه الصبر والتجلد . النهاوند يمثل الخريف وتساقط أوراق الأشجار المصفرة بسكينة وهدوء ، وتلاعب الريح بها وتفريق شملها . النهاوند صلاة والدة نأى ابنها الى ارض بعيدة ، فباتت بعدة تغالب النوى فيهاجمها بعوامل اليأس وتصده بفواعل الصبر والأمل . وفى النهاوند معنى ، بل معان وأسرار ، يفهمها القلب وتفقهها النفس . أسرار يحاول بثها اللسان وكشفها القلم ، فيجف هذا وتنقطع أوصال ذاك . .

واصغيت « للأصفهان » فشاهدت ، بعين سمعى ، آخر فصل من حكاية عاشق دنف ، مات حبيبه فتقطعت عرى آماله وتواصلت زفراته فهو ينوح بآخر ما فى جسده من الحياة ، ويرثى ببقايا ما فى حياته من الرمق . الأصفهان آخر نفس من منازع واقف ، فى مركب الموت ، بين شاطىء الحياة وبحر الأبدية . الأصفهان رثاء الذات بغصات متقطعة متواصلة وتنهدات عميقة . نغمة صداها سكينة تمازجها مرارة الموت والأسى وحلاوة الدمع والوفاء

وان كان النهاوند حنين من يحيا ببعض الأمل ، فالأصفهان انين من انفصمت عرى آماله

ونسمع « الصبا » فتستفيق منا قلوب حجبتها لحف الغم وتستيقظ وترقص بين الضلوع . فالصبا نغمة فرح تنسى المرء اتراحه فيطلب الراح ويشربها بلذة غريبة ،

www.alkottob.com

ويستزيد منها كأنه يعلم أن خمرة المسرة تسابقها . الصبا حديث محب مغتبط صارع الدهر وارغم أنف البين وأسعدته الليالى بخلوة فحظى بلقاء محبوبة جميلة فى حقل بعيد ، فأولاه اللقاء فرحا وابتهاجا . الصبا كنسيمات الصبا ، تمر فتهتز لها أزاهر الحقل تيها وابتهاجا

و « للرصد » ، فى سكينة الليل ، وقع فى المشاعر يحاكى تأثير كلمات رسالة جاءت من عزيز غال ، انقطعت أخباره فى بلاد بعيدة ، فجاء الكتاب يحيى عاطفة الأمل ويعد النفس باللقاء . وكأنى بمغنى الرصد يخبر بقرب الفجر وانحسار الظلام ، وقد قيل : « ان جهز ليلك فارصد » . .

وفى « العتابا » البعلبكية عتاب رقيق يراوح بين اللوم والتعنيف ، ولحنها مزيج من النهاوند المؤثر والصبا المفرح وفعلها فى النفس فعلهما

والآن وقد كتبت هذه الصفحات ، أرانى كطفل ينسخ كلمة من نشيد طويل ، غنته الملائكة عندما جبل الله الانسان الأول ، أو كأمى يستظهر جملة من كتاب وضعته الحكمة على صفحات المشاعر قبيل ابتداء الدهر

فيا أيتها الموسيقى ، يا أوتربى المقدسة (١) ، لقد رقصت اخواتك الفنون فيما غبر من الأجيال زمنا ، ووضعن فى معاقل النسيان آخر ، وأنت تهزئين بهن ولم تتنازلى عن مسرح النفس يوما واحدا ، فكأنك صدى القبلة الأولى التى وضعها آدم على شفتى حواء . صدى له صدى ، تتناقل وتتناسخ وتكتنف الكل وتحيا بالكل ، يلذ لعمالها عملهم ويفرح الغير الموهوب من مكارمها بسمعه

يا بنة النفس والمحبة . يا اناء مرارة الغرام وحلاوته . يا خيالات القلب البشرى . يا ثمرة الحزن وزهرة الفرح .

---

(١) أوتربى : عروس آلهة الموسيقى عند قدماء اليونان

www.alkottob.com

يا رائحة متصاعدة من طاقة زهور المشـــاعر المضمومة . يا لسان المحبين ومذيعة أسرار العاشقين . يا صائغة الدموع من العواطف المكنونة . يا موحية الشـــعر ومنظمة عقود الأوزان. يا موحدة الأفكار مع نتف الكلام ، ومؤلفة المشاعر من مؤثرات الجمال . يا خمرة القلوب الرافعة شاربها الى أعالى عالم الخيالات . يا مشجعة الجنود ومطهرة نفوس العابدين . يا أيتها التموجات الأثيرية الحاملة اشباح النفس ويا بحر الرقة واللطف ، الى امواجك نسلم انفســـنا وفى أعماقك نستودع قلوبنا ، فاحمليها الى ما وراء المادة وارينا ما تكنه عوالم الغيب

تكاثرى يا عواطف النفوس وتعاظمى يا مشاعر القلوب وارفعى أيادى ذوى الأيادى لبناء الهيـــاكل لهذه الآلهة العظيمة ، وانزل يا ملاك الوحى على قلوب الشعراء ، واسكب فى خلايا قريحتهم مديحا وتسبيحا لهذه العظيمة المقدسة ، واكبرى يا مخيلة الرسامين ، وابتدعى لها صورا واشباحا

كرموا يا سكان الأرض كهنتها وكاهناتها ، وعيدوا لذكر خدامها وشيدوا لهم التماثيل . صلى أيتها الأمم وسلمى على أورفيوس وداود والموصـــلى ، وعظمى ذكر بيتهوفن وفغنر وموزار . وغنى يا سوريا باسم شـــاكر الحلبى ، ويا مصر باسم عبده الحمولى . كبر أيها الكون الآلى بثوا فى سمائك أنفسهم وملأوا الهواء ارواحا لطيفة وعلموا الانسان أن يرى بسمعه ويسمع بقلبه . آمين ..

www.alkottob.com

هذا الكتاب

ثلاثة كتب فى كتاب من هذه السلسلة . اخترناها من المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران التى قامت على نشرها لجنة احياء ذكرى جبران . واول هذه الكتب : « الارواح المتمردة » . وهو كما يدل عليه عنوانه يتحدث عن ارواح تمردت على التقاليد والعادات القاسية التى تحد من حرية الفكر وانطلاق العواطف والوجدان

والكتاب الثانى : « الأجنحة المتكسرة » . وقد اصدره جبران بعد « الارواح المتمردة » بأربع سنوات فى نيويورك . وفيه يروى رواية حبه الأول يوم كان طالبا ببيروت . يرويها باسلوب شعرى شائق مشبع بروح التقديس للحب ولذاته وآلامه

والكتاب الثالث : « الموسيقى » . وهو من اوائل ماكتبه جبران ، وهو يصور عالم النفس وكيف يتاثر بانغام الموسيقى ، وألوانها ، وكيف انها لغة الانسانية جمعاء التى لا تعادلها لغة فى التفاهم بين بنى الانسان

وعلى الرغم من ان جبران عاش فى امريكا واحدا وثلاثين عاما ، ولم يعش فى وطنه لبنان غير سبعة عشر عاما الا ان اكثر مؤلفاته وكتاباته شرقية تتدفق حبا للشرق وتعرض صورا عربية ، وألحانا عربية تنبع من قلب عربى ، وتصدر عن وجدان عربى فنان

www.alkottob.com